﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾

[سبأ: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

إنكارُ قدرةِ الله على البعث والنّشور من كُفران نِعَمِه وجحودِ عظمتِه

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى عَظَمَتَه بما وصَف به نفْسَه في الآية السّابقة، وكان هذا موجِبًا لتَعظيمِه وتقديسِه والإيمانِ به: ذكَرَ في هذه الآية أنَّ مِن أصنافِ النّاسِ طائفةً لم تَقْدُرْ رَبَّها حَقَّ قَدْرِه، ولم تُعظِّمْه حَقَّ عظَمتِه، بل كفَروا به، وأنكَروا قُدرتَه على إعادةِ الأمواتِ، وقيامِ السّاعةِ، وعارَضوا بذلك رُسُلَه[1].

وذِكْرُ ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ يُشعرُ بحال الموتى عند وُلوجِهِمُ القبورَ، وعند نشرِهم منها، كما أنّ ذكرَ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ يومِئُ إلى عروج الأرواح عند مفارقة الأجسادِ ونزولِ الأرواح لِتُرَدَّ إلى الأجساد التي تُعاد يومَ القيامة؛ فناسب ذِكرُ هذه الآية إنكارَ المُشركين للبعث والحشرِ وقيامِ الساعة، بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، ثم ردَّ اللّه عليهم قائلًا: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، لأنَّ إبطال زعمِهم من أهمّ مقاصدِ هذه السّورة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبِۖ﴾: (غيب) أصلٌ يدُلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عنِ العُيونِ، تقول غابتِ الشّمسُ وغيرُها إذا استترت عنِ العين، ويُقال غاب

(1) السِّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 674، وقاسم، عقد الجمان، ص: 911.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 13.

عنّي كذا، قال تعالى على لسان سليمانَ ﷺ: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: 20]؛ واستُعمِل (الغائب) في كلِّ غائبٍ عنِ الحاسّة، وفيما يغيب عن علم الإنسان، ومِن الغَيبِ ما لا يَعلمُه إلّا اللّهُ[1]، وكلُّ مكانٍ لا يُدرَى ما فيه فهو غيبٌ، وجمعُهُ غيوبٌ[2]؛ ويُقالُ للشَّيءِ: غيبٌ وغائبٌ باعتبار غيوبه عنِ النّاس، لا باعتبار علمِ اللّه تعالى، فإنَّه لا يغيبُ عنه شيءٌ في السّماوات ولا في الأرض[3]، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما خَفيَ وغابَ عن عِلْمِ النّاسِ واستأثرَ اللّهُ بِعِلْمِه.

2) ﴿يَعْزُبُ﴾: (عزب) أصلٌ يدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ[4]، يُقالُ: عَزَبَ يَعْزُبُ ويَعْزِبُ إذا غابَ[5]، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتَّى لا تقدِرَ عليه فقد عَزَبَ عنك؛ ولا يَعْزُبُ عنِ اللّه شيءٌ، والعازبُ منَ الكَلأ: البعيدُ المطلبِ[6]، ومعنى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يَخفى عن عِلْمه[7].

3) ﴿مِثْقَالُ﴾: (ثقل) أصلٌ يدلّ على ضِدِّ الخِفّة، فالثِّقَلُ هو الوَزْنُ[8]، ويُقال: ثَقُلَ الشَّيْءُ ثِقَلًا وثَقالَةً، أيْ: رَجَحَ وزْنُهُ وغَلَبَ، والمِثْقالُ: مِقْدارٌ مِنَ الوَزْنِ مَعْلومٌ، يُقال: مِثْقالُ الشَّيْءِ، أيْ: مِقْدارُهُ مِنَ الوَزْنِ، ويُطْلَق على الدّينارِ مِنَ الذَّهَبِ خاصَّةً، والجَمْعُ: مَثاقيلُ[9]، والمُرادُ بالمِثقالِ في الآية: ما يُماثِلُ شيئًا في الثِّقَلِ، أي الوزنِ؛ فمثقالُ الحَبَّةِ أوِ الذَّرة: مِقْدارُها[10].

4) ﴿ذَرَّةٍ﴾: (ذرّ) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانتشارٍ، ومن ذلك الذَّرُّ: صغارُ النَّمْلِ[11]، وبها يُضربُ المَثَلُ في الصِّغر، والواحدةُ ذَرَّةٌ، والذَّرَّةُ أيضًا: هباءَةٌ من غُبار، لا تُرى إلّا في ضوءِ الشَّمس المُتسلِّلِ من كوَّة في مكانٍ مُظلِم؛ وهذا أحقرُ ما يُقَدَّرُ بِهِ[12]، وهو المرادُ بها في الآية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (غيب).
(3) الراغب، المفردات: (غيب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عزب).
(6) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (عزب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 214، و22/ 141.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثقل).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ثقل).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 86.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 214، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1653.

5) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بين) أصلٌ يدلُّ على بُعْدِ الشَّيءِ وانْكِشافِه، ومنه البَيْنُ، وهو الفِراقُ؛ والبَيِّنةُ: الأمرُ الواضح؛ والبيانُ: التَّوضيحُ والكَشْفُ[1]، والمُبينُ: اسْمُ فاعِلٍ بِمَعْنَى بانَ، أَيْ ظَهَرَ[2]؛ والمُرادُ به في الآية: المُبالغةُ في الظُّهورِ والوضوح.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ردٌّ على المكذِّبين بإثبات القيامة، وأنّ الله أعلمُ بكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، سابقةٍ ولاحقةٍ

يَذكُرُ اللّه سبحانه ما قاله الكافرونَ في إنكار وقوع القيامة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾؛ والمرادُ بهم الذين كفروا باللّه وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخر، وأنكروا إتيانَها بقولهم: لا تأتينا السّاعة بحالٍ منَ الأحوال، وإنَّما نحن نموتُ ونحيا وما يُهلِكُنا إلّا الدَّهرُ، وإذا متنا فإنَّ الأرض تأكل أجسادَنا، ولا نعودُ إلى الحياة مرَّةً أخرى، فردَّ اللّه عليهم: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا مُحمَّدُ ﷺ: ﴿بَلَىٰ﴾ ستأتيكم القيامةُ، وأُقسِمُ بربّي العالمِ بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلْقِه ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ لا يَعلَمُ وقتَ مَجيءِ القيامةِ أحدٌ سِواه، فلا يَغيبُ عنِ اللّهِ تعالى وزنُ ﴿ذَرَّةٖ﴾ سواءٌ كانت ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه، وإن تفرَّقَت أجزاؤُهم وتمزَّقَت وتلاشَت بعدَ مَوتِهم، ولا يَغيبُ عنِ اللّه تعالى ﴿أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ منه؛ فكلُّ مَكتوبٌ مُثبَتٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ في غايةِ الإبانةِ والوُضوحِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة واوِ ﴿وَقَالَ﴾:

الاستطرادُ في ذكر قولِ المشركين المكذِّبين بالبعث

دلَّ التَّعبيرُ بالواو في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ على عطف هذه الآية على مضمون الآيتَين السّابقتَين؛ فهذا المضمونُ هو قولُ الوجود كُلِّه، وهو قولُ المؤمنين منَ النّاس: ﴿ٱلۡحَمۡدُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 86.

لِلَّهِ﴾، هذا ما قاله الوجودُ والمؤمنون، أمّا الكفّار فلم يقولوا هذا القولَ، بل كان قولُهم: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾[1].

ويجوزُ أن تكون الواوُ اعتراضيّةً للاستطراد؛ وهي في الأصل واوُ عطفِ الجملة المعترضة على ما قبْلَها منَ الكلام، لكن لمّا لم تُفِدْ إلّا التشريكَ في الذِّكْرِ دون الحكم: دَعَوها بالواو الاعتراضيّة، وليست هنا للعطف لعدم التَّناسُبِ بين الجملتَين، وإنَّما جاءت المناسبةُ من أجزاء الجُملة الأولى[2].

ويجوز أن تكون الواوُ استئنافيّةً، وتكونَ جملةُ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ جملةً مستأنَفةً، ويكونَ المرادُ: بيانَ إنكارِ المشركين لإتيان الساعة[3].

دلالةُ (قال) مادَّةً وصيغةً:

دلَّ التَّعبيرُ بالقول ماضيًا في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ على وقوعِه منهم حقيقةً، ليكونَ ذلك من باب إثبات الوقوعِ، حتَّى تتمَّ مُناقشةُ تلك المقولةِ الصّادرةِ منَ المُشركين بالدّليلِ العقليِّ والنّقليِّ، من خلال الآية؛ فهم قالوا هذه الكلمةَ حقيقةً؛ لأنَّ الأصل أنَّ ما نُقل عنِ الغير فإنّه منقولٌ بنصّه وفصله، فهم قالوا: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، وقالوا في موضع آخرَ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]؛ وهذا يدلُّ على تنوُّعِ عباراتِهم في إنكار القيامة[4]، لذلك ناسب التَّعبيرُ بالقول للدّلالةِ على صريح عبارتِهم، وجيء بصيغةِ الماضي ليدُلَّ على تحقُّقِ وقوعِه منهم.

التّأكيدُ على صُدور المَقولِ منهم على حقيقته

سرُّ تعريفِ المُسنَد إليه بالموصوليّة ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعريفُ المُسنَد إليه

(الذين كفروا) كالعلَم بالغلَبة على المُشركين في اصطلاح القرآن

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 775.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 444، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 138.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 214.
(4) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 28.

بالموصوليَّة؛ لأنَّ هذا الموصولَ صار كالعلَم بالغلَبة على المُشركين في اصطلاح القرآن وتَعارُفِ المُسلمين[1]؛ والمرادُ به: جنسُ الكفَرة على الإطلاق، أو كفّارُ مكّةَ على الخصوص.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكُفر مادّةً وصيغةً:

الـدّلالـةُ على سوء عقيدتِهم

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالكفر دون غيرِه في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، لأنّه لفظٌ عامٌّ يندرج تحته الجحودُ والشِّرك والإنكار؛ وهذا الذي يناسبُ السّياقَ، لأنّهم أنكروا وقوعَ السّاعةِ، وهذا الإنكارُ هو عينُ الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وممّا يدلُّ على فساد عقيدتِهم، وأنّه أمر مركوزٌ في فِطرَتهم التّعبيرُ عنه بصيغة الماضي.

سرُّ التّعبيرِ بنفي الإتيان:

إرادةُ نفـي الوجودِ بالكليَّة، لا عَدَمِ حُضورها مع تحقُّقها

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بنفي الإتيانِ دون غيرِه في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ - وإن أرادوا بنفي إتيانِها نفيَ وجودِها بالكليَّة، لا عدمَ حضورها مع تحقُّقها في نفس الأمر - لأنَّهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأنَّ وجود الأمورِ الزَّمانيَّة المُستقبَلة - لا سيما أجزاء الزَّمان - لا تكونُ الّا بالإتيان والحضور[2].

دلالةُ مَقولِ القولِ ﴿لَا تَأۡتِينَا﴾:

إبـرازُ مـوقـفِ المُـشـركـين في اسـتـمـرار إنكارِهم إتيانَ السّاعة وتجدُّده

وقعت جُملةُ مَقولِ القول ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ جُملةً خبريَّة، وجاءت فعليَّةً منفيّةً لتُبرز موقفَ المُشركين منَ السّاعة، الرّاميَ إلى استمرار إنكارِهم وتجدُّدِه، من خلال نفيِ المُضارع الدّالِّ على حُدوث حركة السّاعةِ وقُربِ وقوعها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإتيان:

نفى المُشركون مجيءَ السّاعة حين قالوا ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ بفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 139.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 260.

الإتيان دونَ المجيء؛ لأنّ مجيء السّاعة هاجِسٌ يقضّ مضاجعَهم ويقف حائلًا دون التَّنعُّم بملذّاتهم؛ لذا عبروا بالفعل (أتى)، لأنَّه فعلٌ يرِد كثيرًا في معنى حلولِ المكروه[1]، وكثيرًا ما تقترنُ السّاعة بالفعل (أتى)، إلّا في سورة الأنعام، فقد جاءت مع الفعل (جاء)، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۗ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 31]، وقد نَصَّ أهلُ اللُّغة أنَّ الجيئة والمجيءَ بمعنى الإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ، لأنَّ الإتيان مجيءٌ بسهولة؛ والإتيانُ قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيء يُقال اعتبارًا بالحُصول، كما أنَّ لفظةَ ﴿تَأۡتِينَا﴾ توحي بقرب السّاعة لأنَّ من معاني (أتى): القُربَ الزَّمانيَّ، وهو هاجسٌ لا يفتأ المُشركون في إنكاره، فهو حاضرٌ في أذهانهم[2].

التصاقُ فعلِ الإتيان بحلول المكاره في الغالب

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالإتيان:

جاء إنكارُ الكفّار لِما كانوا يوعَدونه من إتيان السّاعة، فقالوا ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾؛ والمقصودُ بإتيان السّاعة: تقادمُ الزَّمن إلى وقتها الموعود، لا مجيئُها حقيقةً؛ فيكونُ على هذا المعنى استعارةً، فقدِ استُعير الإتيانُ لحقيقة وقوعِ السّاعةِ في موعدها الذي حدَّده اللّه، واشتُقّ منَ الإتيان الفعلُ ﴿تَأۡتِينَا﴾، وذلك على سبيل الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيَّة، وتوحي هذه الاستعارةُ مدلولًا مُهِمًّا، وهو أنَّ قيام السّاعة قريبٌ ومُفاجئٌ؛ وهذا مؤذِنٌ بتصرُّم الأيّام، وتقارُبِ الزَّمان، حتَّى إذا جاء وعدُ اللّه اعتقد من قامت عليه السّاعةُ أنَّها قد أقبلت وأتَت[3].

قيامُ السّاعةِ قريبٌ ومُفاجئٌ

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبير بانتفاءِ الإتيانِ:

عبَّر الذين كفروا عنِ انتفاء وقوعِ السّاعةِ بانتفاء إتيانِها على

انتفاءُ الوقوعِ بانتفاء الإتيان، في زَعمِهم الباطل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 138.
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 43.
(3) مرعي، من بلاغة القرآن في سورة سبأ، ص: 38.

طريق الكناية في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، إذ لو كانت واقعةً لأتت، فوقوعُها إتيانُها[1]، ففي قولهم نفيٌ للبعث وإنكارٌ لمجيء السّاعة، أوِ استبطاءٌ لِما قد وُعِدوه من قيامها على سبيل الهُزءِ والسُّخرية، كقولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يونس: 48][2].

سببُ تقييدِ نفْي الإتيانِ بالضّمير:

وقـعَ الـنّـفـيُ في سـيـاق جـواب كفّار قريشٍ على الـوعـيـد بقيام السّاعة

حكى النَّظمُ الكريمُ ما قيّدَ به كفّارُ قريشٍ نفيَ إتيانِ السّاعة، مِن أنّها لن تأتيَهم، ولن تقعَ عليهم، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، وإن كان مرادُهم نفيَ وقوعِها على جميعِ النّاسِ، وانتفاءَ إتيانِها مُطلَقًا؛ لأنّ قولَهم هذا وقعَ جوابًا لِما كانوا يوعدونه أنفسُهم من إتيانها[3].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلسَّاعَةُۖ﴾:

جاء تعريفُ كلمةِ السّاعة بـ(أل) في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾؛ لأنَّها صارت عَلَمًا بالغَلَبة في القرآن على يوم القيامة وساعةِ الحشر[4].

سرُّ التّعبير عنِ القيامةِ بالسّاعة:

بـيـانُ سُـرعـةِ الـحـسـابِ ووقوعِه فيها

عُبِّر في القرآن عنِ القيامة بالسّاعة - كما في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ - تشبيهًا لها بالسّاعة التي هي جُزءٌ من أجزاء الزَّمان، لسُرعة حسابِها، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّة[5]؛ أو لأنّها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدّنيا؛ أو لأنّها تقعُ بغتةً[6]، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: 77].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 3/ 567.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 121.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 260.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 210.

دلالةُ موقعِ جُملةِ ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾:

مُبالغةُ المشركين في نفيها نفيًا كُليًّا

دلَّ موقعُ جملةِ مَقولِ قولِ الذين كفروا: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ على موقف المُشركين في إنكار السّاعة، وعلى المُبالغة في نفيها نفيًا كُلّيًّا؛ فكأنَّهم يقولون: لا تأتينا السّاعة في حال من الأحوال، لأنّنا نُنكر وجودَها أصلًا، فضلًا عن إتيانها[1].

سرُّ فَصْلِ جُملة الجواب:

الـــرَّدُّ عليهم بإثباتِ ما نفَوه

فُصِل قولُ الله تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ عمّا قبلَه، لأنَّه بمثابة الرَّدِّ على الذين كفروا؛ وذلك أنّه لمّا كان الاعتراضُ على قيام السّاعة من أدعى الأسبابِ إلى مُناقشتها والرَّدِّ عليها بما يُزيل هذه الشُّبهةَ: جاء الرَّدُّ بجملةٍ اسميَّة مُصدَّرةٍ بـ﴿بَلَىٰ﴾ لإثباتِ ما نفَوْه[2].

دلالةُ الأمر في ﴿قُلۡ﴾:

تلقين الله لنبيّه ﷺ الـجـوابَ على المكذّبين

دلّ الأمرُ في قول الله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ على نبوّة محمّد ﷺ، وذلك بتلقين الله له الجوابَ عن قول الكافرين بالإبطال المؤكَّد، على عادة إرشادِ القرآن في تبليغ العقائدِ[3].

دلالةُ التّعبير بحرف ﴿بَلَىٰ﴾:

التَّمهيدُ للرَّدِّ على المُشركين بنفي إنكارهم مجيءَ السّاعة

جاء الحرفُ ﴿بَلَىٰ﴾ في قول الله تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ بمعنى الإضراب، تمهيدًا للرَدِّ على المُشركين؛ فقد أضربتْ ﴿بَلَىٰ﴾ عن المعنى السّابق قبلَها، وهو النّفيُ الواقعُ في قول المُشركين: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، أي: (بل ستأتيهم)، و﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ مُختصٌّ بإبطال النَّفي، فهو حرفُ إيجابٍ لِما نفاه كلامٌ قبلَه؛ ففي معنى ﴿بَلَىٰ﴾ في هذه الآية نَفيٌ لنفْيِهم، ونفيُ النَّفي إثباتٌ، فيكونُ في ذلك إثباتٌ لمجيء السّاعة[4].

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 265.
(2) شكر محمود، دلالة الجملة الاسميَّة في القرآن الكريم، ص: 90.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.

دلالةُ القَسَمِ بالواو:

تأكيدُ إتيان الساعة، ودفعُ كلِّ المزاعم

لمّا تقدَّم في الآيات السّابقةِ منَ الأدّلة ما لا يُرتاب معه في إثبات وحدانيّةِ اللّه ووقوعِ البعث، ومع ذلك أنكر المشركون: أمرَ اللّهُ رسولَه ﷺ أن يُجيبَهم بِرَدٍّ كلامهم، ردًّا مُؤكَّدًا بالقسَم على إتيان السّاعةِ - مع أنَّه لم يُخْلِه من دليلٍ ظاهرٍ[1]؛ فأكّد ما اقتضته ﴿بَلَىٰ﴾ مِن إثبات إتيان السّاعةِ بالقسم، الذي دلّ على أنّها آتيَةٌ لا ريبَ فيها؛ وفيه تأكيدٌ يُروِّع السّامعين المُكذِّبين[2].

وممّا يُذكرُ في دلالة القسَم: فَصْلُ الحُكم، وإكمالُ الدَّليل، ودحضُ ذرائعِ المُنكِرين؛ لأنَّ إعادةَ القول على مُنكِره يَلزَمُ أن يكونَ مُقترنًا باليمين[3]، وهذا واضحٌ في الآية، حيث جُمع بين الدّليل واليمين: فقد أُبطِلت مقالتُهم الفاسدةُ المُنكِرةُ للسّاعةِ بالحرف ﴿بَلَىٰ﴾، الذي للإضراب، وأوجِب ما بعدها، أي: ليس الأمرُ إلّا إتيانُها؛ ثُمَّ أُعيد إيجابُه، مُؤكَّدًا بما هو الغايةُ في التَّوكيد والتَّشديد، وهو التَّوكيدُ باليمين باللّه ﷻ، فقال: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[4]، والقسَمُ من أقوى المُؤكِّدات، فجيء به لفصلِ الحُكم، وإكمالِ الدَّليل، ودحْضِ ذرائعِ المُنكرين[5]، حتّى لا يبقى للمعاندين عذرٌ ولا ريب، لأنّهم كانوا يعرفون أمانةَ محمَّدٍ ﷺ، ونزاهتَه عنِ الكذب - فضلًا عنِ اليمين الفاجرة - وإنّما لم يُصَدِّقوه مكابَرةً[6].

دلالةُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّة في مقام القَسَمِ:

الدَّلالةُ على الإحسان والإكرام

جاء القسمُ بالرَّبِّ في قول اللّه تعالى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 444.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 62.
(5) شكر محمود، دلالة الجملة الاسمية في القرآن، ص: 90.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 185.

للإشارةِ إلى أنَّ إتيان السّاعة من شؤون الرُّبوبيَّة[1]، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى تثبيت رسولِ الله ﷺ وتبكيت المشركين؛ وذلك بأنّ المعنى المرادَ: (إنّ ربي - المُحسِنَ إليّ بما عمَّني به معكم من النِّعَم، وبما خَصَّني به من تَنبِئَتي وإرسالي إليكم - هو أكرمُ مِن أنْ يدَعَكم من غير أن يحشُرَكم لينتَقِمَ لي منكم، ويُقِرَّ عيني بما يُجازيكم به من أذاكم لي ولمنِ اتَّبعني)[2].

وممّا يُذكَر في دلالة القسم بالربوبيّة: الإشارةُ إلى ربوبيّة الله تعالى لهؤلاء الذين يُنكِرونه، وينكرون ما تقضي به الرّبوبيّةُ منَ الولاء لله، والتّصديقِ برسله؛ وما وقع منهم إنّما هو إنكارٌ غليظ في مواجهة الرّبوبيّةِ، التي لا تنقطع فواضلُ إحسانها وإنعامِها لحظةً واحدةً عن أيِّ موجود[3].

دلالةُ الإضافة في ﴿وَرَبِّي﴾:

الـدَّلالـةُ على عِـظَـمِ الـقَـسَـمِ ووكادتِه

جاء القسمُ على إتيان السّاعةِ في قول الله تعالى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بإضافة الربِّ إلى ضمير المتكلّم، العائدِ إلى الرّسول ﷺ: ليدلَّ على شِدَّة القَسَم؛ إذ لم يأت به مضافًا إلى الاسم المُشترك بين النّبيِّ ﷺ وبَيْنَ من أَنْكَرَ السّاعة[4].

وهذه إحدى الآيات الثّلاث - التي لا رابعَ لهُنَّ - التي أمر الله فيها رسولَه ﷺ أن يُقسِم بربِّه العظيم على وقوع المَعادِ، لمّا أنكرَه من أنكره من أهل الكُفْرِ والعناد؛ أُخرَياها قولُ الله تعالى: ﴿*وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: 53]، وقولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التّغابن: 7][5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 444.
(3) الخطيب، التفسير القرآني: 11/ 777.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 519، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 495.

دلالةُ توالي المؤكِّدات في الجُملة:

تـأكـيـدُ الإتـيـان على أتمِّ الوجوه وأكملِها

اجتمعَ في قول الله تعالى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أكثرُ من مُؤكِّد، لأنَّ المُخاطَبَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ المُنكِر، فاحتيج إلى التَّأكيد: بالقَسَم، ولامِ التَّأكيد الواقعةِ في جواب القسَم، ونونِ التَّوكيد المُثقَّلة، إضافةً إلى مُؤازرة صيغة الإضراب ﴿بَلَىٰ﴾، والصِّفةِ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، وهي مُؤكِّدات دعى إليها حالُ المُخاطَب المُنكِر؛ ولمّا كان موضوعُ الإنكار منَ الموضوعات المُهِمَّة في العقيدة - وهو الإيمانُ باليوم الآخر وقيامِ السّاعة[1] جاءتِ الجملة بهذه التّوكيداتِ.

دلالةُ تعديةِ الإتيانِ إلى ضمير المخاطبين:

المقصودُ إتيانُ السّاعة الذي يكون عنده عقابهم

عُدّي إتيانُ السّاعة في قول الله تعالى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إلى ضمير المُخاطَبين من بَيْنِ جميعِ النّاس، دون: (لتأتيَنّا)، ودون أن يُجرَّد عنِ التَّعدية لمفعول: (لتأتينَّ)، لأنَّ المُراد إتيانُ السّاعة الذي يكون عنده عقابُهم، كما يُقال: أتاكمُ العَدوُّ، وأتاك اللّاحقون؛ فتعلُّقُه بضمير المُخاطَبين قرينةٌ على أنَّ إتيان السّاعةِ كنايةٌ عن إتيان مكروهٍ فيه عذابٌ[2].

دلالةُ الوصفِ بعلم الغَيب بعد القسَم:

إمدادٌ للتَّأكيد، وتسديدٌ له إثرَ تسديد

جاء قولُ الله تعالى ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بعد القسَم ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إمدادًا للتَّأكيد، وتسديدًا له إثرَ تسديد، وكسرًا لسَوْرَة نكيرِهم واستبعادِهم، فإنَّ تعقيب القسَم بجلائل نعوتِ المقسَم به على الإطلاق يُؤذِن بفخامة شأنِ المُقسَم عليه، وقوَّة ثباتِه وصحّتِه، لِما أنَّ ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر؛ ولا ريبَ في أنَّ المستشهَدَ به كُلَّما كان أجلَّ وأعلى، كانتِ الشَّهادةُ آكدَ وأقوى، والمُستشهَدُ عليه أَحَقَّ بالثُّبوت وأولى، لا سيما إذا خُصَّ بالذّكرِ منَ النُّعوت ما له تَعَلُّقٌ

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 37.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.

خاصٌّ بالمقسَم عليه؛ فإنَّ وصْفَ الربِّ بعلم الغيب الذي أشهرُ أفراده وأدخلُها في الخفاء هو المُقسَمُ عليه، وهو إتيانُ السّاعة: تنبيهٌ لهم على عِلَّة الحُكم وكونِه ممّا لا يحوم حوله شائبةُ ريبٍ ما[1].

ولمّا كان إنكارُهم البعثَ باعتبار أنّ الأجزاء المتفرِّقةَ المنتشِرةَ يمتنعُ اجتماعُها، كما كان يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: 4]: جاء الوصفُ بهذه الأوصاف، ردًّا لزعمِهم واستحالتِهم؛ فمن كان علْمُه بهذه المثابة، كيف يمتنعُ ذلك منه[2]؟!

بلاغةُ الادماج في ذكر صفة العلم:

العلمُ التّامُّ بوقت مجيء السّاعة

في جواب القسم ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وإتباعِه بالصِّفة ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ إدماجٌ[3]؛ فقد جاءتِ الصِّفة لتُفيد معنى تفرُّدِ الله بهذه الصِّفة، ولكنّها أيضًا ضُمِّنت معنًى آخرَ، وهو أنَّ الله هو الذي يعلم وقتَ مجيئها، لأنَّ السّاعة من أدخلِ المغيَّبات في الخفية[4]، وقد أفاد الإدماجُ في هذه الآية التَّنبيهَ على سوء حالهم، وفسادِ معتقدهم، وخطورةِ ذلك على عاقبتهم، وجاء هذا الإدماج أيضًا لتقرير واسعِ علْمِه ﷻ، فإنَّه لا يَغيب عنه شيءٌ مهما صَغُرَ أو خفيَ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْغَيْبِ﴾:

إفادةُ العموم والشُّمول لِكُلِّ المُغيَّبات

دلّ دخولُ (أل) على لفظ الغيبِ في قول الله تعالى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ على العموم والشّمولِ، وأنّه لا يخرج عن علم الله شيءٌ، فهو سُبحانه يعلمُ كُلَّ غَيبٍ[5] غاب عنِ الخلق؛ فالعلقة غيبٌ في النّطفةِ، والمضغةُ غيبٌ في العلقة، والإنسانُ غيبٌ في هذا

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 567، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 241، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 519، 520.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 500.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(4) الايجي، جامع البيان: 3/ 374.
(5) السِّيواسي، عيون التَّفاسير: 3/ 310.

كلِّه[1]؛ فهو سبحانه ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بالعلم المحيطِ الحُضوريِّ، بعموم المغيَّبات، حاضرةً عنده غيرَ مغيَّبةٍ عنه[2].

نُكتةُ الفصل بالمُقسَم عليه:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ - على قراءة ﴿عَٰلِمِ﴾ بالجرِّ - بالفصل بين الموصوف (ربّ) وصفتِه ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بالمُقسَم عليه ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾: للردِّ على إنكار الكفّار عدمَ إتيان السّاعةِ، لأنّهم جعلوا من عدم العلم بها دليلًا على عدم وقوعِها، وهذا واردٌ في أسلوب القرآن الكريم، حيث يُتبَعُ ذِكْرُ السّاعة بذكر انفرادِه تعالى بعلْمِها، لأنَّ الكافرين بها جعلوا من عَدَمِ العلم بها دليلًا سُفسطائيًّا على أنَّها ليست بواقعة، ولذلك سمّاها القرآن الواقعةَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2][3]، وفي الفصل إشارةٌ أيضًا إلى المبادرة بالغرَض المُرادِ ذكرُه لأهمّيَّتِه وخطورته، وهو إتيانُ السّاعة، وتبكيتُ المشركين.

دلالةُ إتباع ذِكْرِ السّاعة بذكر انفراد الله بعلمها في النَّظم الكريم

دلالةُ التّعبير بالاسميّة ﴿عَٰلِمِ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسميّة في وصْفِ الله سبحانه بالعلم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾، فقال ﴿عَٰلِمِ﴾ دون الفعليّة (يعلم): للإشارةِ إلى أنّ العلم صفةُ ذات، بخلاف الفعليّة (يعلم)، فهي صفةُ فعل، والمقامُ هنا يناسبُه التَّعبيرُ بالاسميّة الدّالُّ على الثّبوتِ والاستمرار، فعلمُه سبحانه بالغيب أمرٌ ثابت؛ أمّا إذا كان الأمر يتعلّق بحدَثٍ يتكرّر حدوثُه ويتجدّد وقوعُه: فإنّه يأتي التَّعبيرُ بالفعليّة، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: 34]، وكما في الآية السّابقة مِن هذه السّورة.

العلمُ صفةُ ذاتٍ لله، ثابتةٌ منذ الأزل، دائمةٌ إلى الأبد

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 185.

(2) علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 168.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 140.

وقدِ اقتضتْ ذكرَ وصفِه تعالى بعلم الغيب: مناسبةُ تحقيقِ إتيانِ السّاعة، فإنّ وقتَها وأحوالَها منَ الأمور المغيَّبةِ في علم النّاس؛ وفي هذه الصّفةِ أيضًا إتمامٌ لتَبْيين سَعَة علْمِه تعالى بالكائنات ظاهرِها وخفيِّها، جليلِها ودقيقِها[1].

أثرُ تعدُّدِ قراءاتِ ﴿عَٰلِمِ﴾ على المعنى:

تأكيدُ وقوعِ الساعة، وعدًا من علّام الغيب والشهادة

تعدّدتِ القراءاتُ في لفظ ﴿عَٰلِمِ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: فقرأ نافعٌ وأبو جعفر وابنُ عامر وروَيس ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بضَمِّ الميم، على أنَّ ﴿عَٰلِمُ﴾ خبَرٌ لمبتدأٍ مَحذوفٍ، تقديرُه (هو عالمُ الغيب)، أو على أنّه مبتدأٌ وخبَرُه ﴿لَا يَعْزُبُ﴾؛ فالجملةُ استِئنافيَّةٌ[2]، وقرأه ابنُ كثير وأبو عمرٍو وعاصِمٌ وخَلَفٌ ورَوحٌ عن يعقوبَ بصيغةِ اسمِ الفاعل مجرورًا ﴿عَٰلِمِ﴾، على أنّه صفةٌ لاسمِ الرّبوبيَّةِ المقسَمِ به في قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ﴿عَلَّٰمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بصيغة المُبالغة في صفة العِلم، لأنَّ السّاعة من أدخَلِ المُغَيَّبات في الحقيقة[3]، مجرورًا صفةً أيضًا لـ(رَبّي) المقسَمِ به.

وهذه القراءاتُ يُكَمِّل بعضُها بعضًا في قوّة ترابُطِ جُمَلِ الآية، وبراعةِ تسلسُلِ معانيها؛ فتارةً تُقرأُ الآيةُ بالقطع والاستئناف، برفع ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ على المدح والتَّعظيم[4]، وتارةً بالوصل على الإتباع، بجرّ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أو ﴿عَلَّٰمِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لتأتيَ هذه الصفةُ - سواءً على الاستئناف أو على الإتباع - تؤَكِّدُ إتيانَ السّاعة ووقوعَها بلا رَيب، وفي تعدُّدِ القراءات أيضًا إبرازٌ لعلم اللّه تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 140.

(2) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 349، وابن خالويه، الحُجَّة في القراءات السَّبع، ص: 291، 292، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 287.

(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 349، وابن زنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 581، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 31، والملا علي القاري، أنوار القرآن، ص: 223.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 121.

بالغيب، إذْ منَ المعلوم أنّ الغيبَ نسبيٌّ، فكلُّ مرحلةٍ مِن مراحلِه ناسبها صيغةٌ من أوصافه بالعلم: فمرّةً أتى بـ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾، وأخرى أتى بـ﴿عَلَّٰمِ ٱلۡغُيُوبِۖ﴾.

دلالةُ الاكتفاء بذكر الغيب:

من يعلمِ الغيبَ يعلمِ الشَّهادةَ

وصف اللّهُ ذاتَه الأقدسَ سُبحانه بعلم الغيب في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾، بينما غالبُ آيات القرآن في هذا السّياقِ تجمعُ بين علم الغيب وعلمِ الشّهادةِ، كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]؛ وغيرِها منَ الآيات؛ واكتُفيَ في بعضها بذكر الغيب، كما في هذه الآية، وكما في سورة التّوبةِ وسورة الجنّ، وفي هذا الاكتفاء مناسبةٌ لسياق الآية، فالحديث في مطلَعِ سورة سبأٍ عن إنكار الكافرين للسّاعة، وهو أمر غيبيّ، فناسب تخصيصُ الكلام على علم الغيب؛ ثُمّ فُرِّع عن إتيان السّاعةِ وقوعُ الجزاء للذين آمنوا والعقابِ للذين كفروا، وهذا أيضًا من أمر الغيب، فكان المناسِبَ ذكرُ الغيب، وفي الاكتفاء به دلالةٌ على علم سائرِ المعلومات، فمَن علِمَ الغيبَ علِمَ الشَّهادةَ من بابٍ أولى.

سرُّ التّعبير بالجُملة المنفيَّة ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾:

تأكيدُ البعث بذكر إحاطة عِلْمِ الله بالكون

جاءت جُملة ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ خبريّةً منفيَّةً، للدَّلالة على إحاطة عِلْمِ اللّه بالكون، وأنَّها إحاطةٌ أبديَّةٌ دائمةٌ، لا تغيبُ عنه غائبةٌ طَرْفةَ عينٍ، ولا أقلَّ من ذلك، لأنّ المولى سبحانه وصف نفسَه بكامل العلم وعظيمِ الإحاطة بالموجودات، وهذا مِمّا يؤكِّدُ وقوعَ البعث، فوقتُ مجيءِ السّاعةِ لا يعلمُه سوى علّامِ الغيوب، الذي لا يغيبُ عن علمه شيءٌ في السّماوات ولا في الأرض من ذرّة فما دونَها، ولا ما فوقَها، أين كانت وأين ذهبت، فكلُّ ذلك محفوظٌ في كتاب مبين؛ فالعظامُ

وإن تلاشت، فهو عالمٌ أين ذهبت، وأين تفرَّقت، فيُعيدُها كما بدأها أوَّلَ مرَّة، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ[1].

دلالةُ التَّعبير بالعزوب:

التّعبيرُ بالعزوب أبـلـغ في نفي الغيبة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بنفْيِ العزوبِ دونَ نفْيِ الخفاءِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنه أدقُّ من كلمة يخفى؛ فالعازبُ: المُتباعِدُ في طلب الكلأ، ويقال: عزَب ظهرُها إذا غاب عنها زوجُها، وقومٌ مُعزِبون، عَزَبَتْ إبلُهم[2]، فلا يُقال عَزَبَ إلّا للمُبتعدِ الغائبِ الذي لا يُدركه الإنسانُ بالبصر، ولا يُعرَفُ مكانَه بالحِسِّ، إمّا لابتعاده، أو لدقَّته وصِغَرِه، أمّا الخافي فهو المُستترُ، والخافيةُ نقيضُ العلانية، فلا نقول عن شيء بأنَّه مختفٍ إلّا للموجود المستترِ، الذي لا يمكن الوصولُ إليه إلّا بإظهاره، فالتّعبيرُ بالعزوبِ أبلغُ في نفي الغيبةِ أوِ الخفاءِ عنه.

بلاغةُ الكناية في التَّعبير بالعزوب:

الخفاءُ من لوازم الشّيء البعيد

تظهرُ بلاغةُ الكناية في التَّعبيرِ بالعزوب في قول الله تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وذلك أنّ أصلَ العزوب يدُلُّ على التَّباعُد والتَنَحّي[3]، ثُمّ أُريد به معنًى آخرُ مجازيٌّ، هو الخَفاءُ وفواتُ العِلْم، وهذا بطريق المجاز المُرسَل بعلاقة الملزوميَّة، لأَنَّ الخَفاءَ لازمٌ للشَّيءِ البعيدِ؛ فمعنى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾: لا يَخفى عن عِلْمه[4].

دلالةُ اختلاف قراءات ﴿يَعۡزُبُ﴾:

لا يغيب عن الله شيء، ولا يخفى عليه شيء، وهو اللطيف الخبير

قرأ الجمهورُ ﴿يَعۡزُبُ﴾ بضمّ الزّاي في قول الله تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقرأ الكِسائيّ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 58.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عزب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 214، و22/ 141.

﴿يَعْزِبُ﴾ بكسرها[1]؛ وهما لغتان، ويشيرُ اختلافُ القراءة بين قوّة الضّمِّ وضعفِ الكسر إلى شموليّة علْمِ اللّه الواسع، فلا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرّة لا عزوبًا قويًّا كاملًا ولا عزوبًا ضعيفًا لطيفًا، بل قد أحاط بجميع الموجودات - ظاهرِها وخفيِّها - علمًا وقدرةً.

دلالةُ التّعبير بالمثقال مادّةً وصيغةً:

إحاطةُ عِلْمِ الله بكُلِّ شيء

استعمل البيانُ القرآنيُّ لَفْظَ ﴿مِثْقَالُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾، وأتى به على وزن مِفْعال: لأنّه اسمٌ للآلة التي يُعرف بها مقدارُ ثِقَلِ الشَّيءِ أو خفَّتِه مهما تناهت في الخفّةِ، وجاء بعده بلفظ ﴿ذَرَّةٍ﴾، والأصلُ فيها ألّا توزَن، بل لا تكاد تُرى بالعين المجرَّدة، فالذّرّةُ يُضرب بها المثل في الخفّة وعدمِ القيمة، إذْ يُطلق الذَّرُّ في الأصل إمّا على صِغار النَّمل أو على الدّقيقة منَ الهباء، وهو الغُبار الذي لا يُرى إلّا في ضوء الشمس؛ وهما من أحقرِ وأصغرِ ما يُشاهَد بالعين المجرَّدة، لكن جُعل لها في هذا التّعبيرِ وزنٌ وثِقَلٌ وقَدرٌ، حيثُ توزن بالمثقال؛ وفي هذا مبالغةٌ أيَّما مبالغة، ليدلّ التّعبيرُ البليغُ على عِظَم إحاطة علْمِ اللّه سبحانه، إذ لا يَغيب عنه أدقُّ الأعمال وأصغرُها وأحقرُها، فما هو أعظمُ منَ الذَّرَّة يكون أولى بالحُكم[2].

بلاغةُ المجاز في التّعبير بالمثقال:

الإشـــارةُ إلى سَـعـة العـلـم وإقامة العدْلِ

في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ؛ فقد ضَرَبَ اللّه مثلًا بأصغرِ مخلوقٍ يُدركه البشرُ على العموم - ومشركو مكّةَ على الخصوص - وهو الذَّرّةُ، حين نفى أن يغيب عنه مثقالُها في السَّماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 16]، فالمثقال آلةُ الثِّقل، وهو اسم للصُّنوجِ التي يوزَن بها؛ وأُطلق

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 285.

(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 7/ 555، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 265.

على العديل مجازًا مُرسلًا[1]، والعلاقةُ بين المعنى الحقيقيّ والمجازيّ هي علاقةُ الآليَّة، حيث أُطلقت آلةُ الوزن التي من دلالاتها الثّانوية العِدْلُ، والمراد العَديلُ.

بلاغةُ الكناية في التّعبير بالذّرَّة:

إحاطةُ علم الله تعالى بكُلِّ شيء مهما دقَّ وصغُر

في التّعَبيرِ بالذَرَّة في قول الله تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: تأكيدٌ على شموليّة علْمِ الله تعالى، وإحاطتِه بكلّ مُخلوقاته، مهما دقَّت وتناهت في الصِّغر، فالآيةُ نُظمت لبيانِ إحاطةِ علم الله تعالى، فنفتْ عزوبَ أدقِّ المخلوقات المتناهيةِ في الصِّغر، وهي الذرَّة؛ والذَّرّةِ في الأصل نملةٌ حمراءُ صغيرةٌ جدًّا، صارت مثلًا في أقلِّ القليل، فهي كنايةٌ عنه[2].

دلالةُ تنكيرِ ﴿ذَرَّةٍ﴾:

إفـادةُ العُـموم والـشّـمـول، وبيانُ قدرة الله على البعث بعد الموت

نَكَّر النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ في قول الله تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ للدّلالةِ على إحاطة علْمِ الله بأصغرِ شيءٍ من مخلوقاته، حيث جعل الله الذرَّةَ مِثالًا لأقلِّ الأشياء وأحقرِها، مِمّا يتعذَّر معها رؤيتُها، للتَّأكيد على علم الله وإحاطتِه بمخلوقاته، وفي التّنكيرِ أيضًا دلالةٌ على بلاغة اللّفظِ القرآنيِّ، لإفادتها دخولَ كلِّ ما يُسمَّى ذرَّة، ولو انقسمت أجزاؤها.

وممّا يُذكرُ في دلالة التّنكيرِ لكلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾: الإشارةُ إلى وقوع حشْرِ الأجساد بعد استحالتها، لأنَّ الكافرين أحالوه بِعلَّةِ أنَّ الأجساد تصير رُفاتًا وتُرابًا، فلا تمكن إعادتُها؛ فنُبِّهوا إلى أنّ علم الله محيطٌ بأجزائها، فمواقعُ تلك الأجزاء في السّماوات وفي الأرض، وعلمُه بها تفصيلًا يستلزم القدرةَ على تسخيرِها للتَّجمُّع والتِحاق كُلٍّ منها بعديله، حتَّى تلتئمَ الأجسامُ منَ الذَّرّات التي كانت مُركَّبةً منها في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 446.

آخر لحظاتِ حياتها، ثمّ عقبها الموتُ، وتوقّفَ الجسدُ عنِ اكتساب أجزاءٍ جديدة، فإنْ عَدَتِ الأرضُ على أجزاء ذلك الجَسَدِ ومزَّقته كُلَّ مُمزَّق: كان الله عالمًا بمصير كُلِّ جُزء، فإنَّ الكائناتِ لا تضمحلُّ ذرّاتها، فتمكنُ إعادةُ أجسامٍ جديدة تنبثق من ذرّاتِ الأجسام الأولى وتُنفَخُ فيها أرواحها، فاللهُ قادر على تسخيرها للاجتماع، بقوى يُحدثها الله تعالى لجمع المتفرِّقات، أو بتسخير ملائكةٍ لجمعها من أقاصي الجهات في الأرض والجوِّ أو السّماءِ على حسب تفرُّقها[1].

سرُّ تقديم ذِكْرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

كونُ السَّماوات أعظمَ إحاطةً بالموجودات منَ الأرض

قدَّم النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قول الله تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ الإحاطة بمثل الذَّرّات أمرٌ مُعجِزٌ للبشرِ في الأرض، فالسَّماواتُ من بابٍ أولى وأعجز.

دلالةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

عـلـمُ الـلـه محيطٌ بملكوت السماوات، على تعـدُّدِها وكـثرةِ ما يجري فيها

جاء لفظُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مجموعًا في قول الله تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ المقامَ بيانُ شموليّة علْم الله، وواسعِ إحاطته، وقد ذُكرَ قبله سَعَةُ مُلك الله سبحانه، وأنّه شاملٌ للسَّماوات كلِّها، كما سبقتِ الإشارةُ إلى علم الله ما يجري فيها منَ الأحداث على كثرتها وتنوُّعِها؛ فناسبه جمعُ السَّماوات، للتّأكيدِ على سَعةِ علْمِ الله وإحاطته بملكوته.

ولمّا كان من أغراض إثباتِ شُمولِ علم الله: اختصاصُه تعالى بعلم الغيب، ونفيُه عن كلِّ من هو في واحدة منَ السَّماوات: أتى بها مجموعةً[2]، ولمّا بَيَّن الله سبحانه علمَه بأمور السَّماء في الآية السّابقة، وكان المُرادُ بها الجِنْسَ: جمَعَ هنا تصريحًا بذلك المراد[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 141، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 348.
(2) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 1/ 116.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 446.

نكتةُ إيراد علمِ الله بما في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إثباتُ قدرة الله على جمع الأرواح والأجسام لِعلمِه بمحالِّها

تظهرُ مناسبةُ ذكرِ علْم الله بما في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الآية ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بسياق إقرار البعث والنّشورِ: في أنَّ الإنسانَ له جِسْمٌ وروحٌ، فالأجسامُ أجزاؤها في الأرض، والأرواحُ في السَّماء، فقوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى علمه بالأرواح، وقوله: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى علمه بالأجسام؛ فإذا عَلِم الرّوحَ والأجسامَ قدر على جمعها، فلا استبعادَ في الإعادة[1].

سِرُّ تقييد عدم العُزوب بما في السَّماوات والأرض:

كونُ المُخاطَبين لا يُشاهدون سواهما

قيَّد النَّظمُ الكريمُ عدمَ عُزوبِ علْم الله سُبحانه بالسَّماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ – مع أنَّه سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ لا فيهما ولا فيما هو خارجٌ عنهما – تقريبًا لفهوم العامَّة منَ المُخاطَبين؛ لأنَّ النّاس لا يُشاهدون سواهُما، وسوى بعضِ ما فيهما منَ المخلوقات.

بلاغةُ الإطناب بقوله ﴿وَلَا فِي﴾:

الزّيادةُ في تأكيد عدم عزوب أيِّ شيءٍ عن علم الله

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بتَكرارِ حرفِ النَّفي والظّرفيّة في قول الله تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يكتفِ بالمُتقدِّم، بأن يُقال: (مِثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ والأَرضِ): زيادةً في تأكيد عدمِ عزوبِ أيِّ شيءٍ عن علم الله، مِمّا يتصوّرُه الإنسانُ، ومِمّا لا يتصوَّرُه؛ كما أنَّ في إعادة قراءتها وسماعِها استشعارًا لعظمة عِلْم الله ومُراقَبته سُبحانه.

ومن أسرار هذا الإطنابِ كذلك: الإشارةُ إلى استقلال كلٍّ منَ السّماء والأرض في قضيّة علم الذّرّة، لذلك ناسب التَّعبيرُ باستقلال كلٍّ منهما، دون أن يُعطف الأرضَ على السّماء.

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 7.

دلالةُ واوِ ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ﴾:

الواو في قول الله تعالى ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ﴾ من الآية الكريمة ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ للعطف، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ذكرَ مثقالِ الذَّرّةِ ليس للتَّحديد، بل حتّى الأصغر منه لا يعزبُ[1]؛ فالجُملة مُؤكِّدةٌ لِنَفْيِ العُزوبِ[2].

عـلـمُ الـلـه لا يـحُـدُّه شيءٌ، فـلا يـعـزب عنه مثقالُ الذَّرّة، بل لا ما هو أصغرٌ منه

دلالةُ ذكر الأصغر:

أشار بقوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ إلى ما لا يعلمُه إلّا الله منَ العناصر والقوَى الدَّقيقةِ أجزاؤُها، الجليلةِ آثارُها وتسييرُها، بما يشملُ الأرواحَ، التي تحلُّ في الأجسام، والقوى التي تودعُها فيها[3].

الإشارةُ إلى علم الله تعالى بكلّ عناصرِ الكَون، وأجزائه الدّقيقة

سِرُّ التّعبير بصيغة أفعل التَّفضيل:

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿أَصۡغَرُ﴾ و﴿أَكۡبَرُ﴾ بصيغة أفعل التَّفضيل في قول الله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ إشارةً إلى أنَّ هُناك ما هو أصغرُ منها وأكبرُ، فلفظُ الذّرّة في العربيّة يصدُق على النّملة الصّغيرة، المتناهيةِ في الصِّغَر، حتّى إنّها لا تُرى بالعين المجرّدة؛ وتواطأَ الفيزيائيّون على إطلاقه على الذّرّة التي هي أصغرُ مكوِّنات المادّة، والقرآنُ الكريمُ في ذكره الذّرّةَ وما هو أصغرُ منها يحمِل بين طيّات نظمِه إعجازًا علميًّا، حيث إنّ العقل البشريَّ، مهما اجتهد في التّنقيب والبحث عمّا هو صغيرٌ، فثمّةَ ما هو أصغرُ منه، مثل البروتون، والإلِكترون، وما هو أصغرُ منهما ممّا لم يصلْ إليه العلمُ البشريّ بعدُ، فتبارَكَ الله الذي لا يعزبُ عن علمه الشّاملِ المطلَقِ مثقالُ ذرّة ولا أصغرُ منها في السّماوات ولا في الأرض.

الإشـــارة إلى سَعة عِلْمِ الله بكل ما تناهَى في الـصِّـغـر، وتعاظَم في الكِبَر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 192.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 241، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 121.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 142.

فمجيء أفعل التَّفضيل ﴿أَصْغَرُ﴾ أدخلَ كلَّ ما يُمكن أن يوجد أصغرَ منَ الذّرّة، إذ أفعلُ التَّفضيل ليس له حدٌّ ولا حصر، وأمّا لفظُ ﴿أَكْبَرُ﴾ فهو واضحٌ، إذ يَدخُل تحتَه كلُّ شيء أكبرُ منَ الذَّرّة مهما بلغ؛ وفي هذا إفادةٌ لعِظَم علْم الله، وإحاطتِه بِكُلِّ شيء، وأنَّه لا يعزبُ عنه شيءٌ مهما صغُرَ أو كبُرَ.

بلاغةُ الطِّباق بين لفظَيْ ﴿أَصْغَرُ﴾ و﴿أَكْبَرُ﴾:

التّقابُل بين تناهي صغر الأشياء وتعاظُمِ كبَرِها

طابق البيانُ القرآنيُّ بين لفظَيْن متقابلَيْن في المعنى، هما: ﴿أَصْغَرُ﴾ و﴿أَكْبَرُ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾؛ وتقابلُ المعنيَين مِمّا يزيد الكلامَ حُسنًا وطرافةً، ويدلُّ هذا الطِّباقُ على كمال سَعَة علم الله، الذي يشملُ كلَّ شيء صغيرًا مهما بلَغ في صِغَره، وكبيرًا مهما بلَغ في كِبَره؛ فأتاح هذا الطِّباق للخيال أن يتصوّرَ تناهيَ صِغَرِ الأشياء وتعاظُمَ كِبَرِها.

سِرُّ تَكرار حَرْفَيِ العطف والنَّفي بين المتُقابلات:

تأكيدُ النَّفي، وتقرير المعنى في أذهان المُنكرين

جاء نفيُ العزوبِ عن علم الله في الآية ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ بطريق الطِّباق بين السَّماوات والأرض، وبين ما هو أصغر وما هو أكبر، مع تَكرارِ حرفَيِ العطف والنَّفي (لا)، تأكيدًا للنَّفي، وتقريرًا للمعنى في أذهان المُنكرين؛ فقد أحاط علمُ الله بالسّماوات، كما أحاط بالأرض، وشمل ما هو أصغر من عديل الذّرّة، كما بلغ ما هو أكبر منه، وفي هذا التّكرارِ للتّقرير والتّأكيدِ: تهديدٌ أيضًا للمنكرين منَ الذين كفروا.

سِرُّ عَطْفِ ﴿أَكْبَرُ﴾ على ﴿أَصْغَرُ﴾:

الأمورُ صغيرُها وكبيرُها مُثبَتةٌ في الكتاب المبين

عطفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿أَكْبَرُ﴾ على ﴿أَصْغَرُ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ولم يكتفِ بالأصغر، معَ أنَّ مَن عَلِم بالأصغر لا بدّ وأن يعلم الأكبرَ؛ وذلك

لإفادة إحاطةِ علْمِه سبحانه بجميع الأشياء، فقد علِم أدقَّ الأشياء وأخفاها، كما علم أكبرَ الأشياء وأظهرَها، ولا يكبر عليه الكبيرُ، كما أنَّه لا يعزب عن علمه الصّغيرُ.

ويكمُن سرٌّ آخرُ من أسرارِ هذا العطف في مناسبته بيانَ إثباتِ الأمورِ في الكتاب؛ فلوِ اقتصر على الأصغر لَرُبَّما تَوَهَّم متوهِّمٌ أنَّه يُثبِتُ الصّغائرَ لكونها محلَّ النِّسيانِ، وأمّا الكبائر فلا حاجةَ إلى إثباتها؛ فلذلك بيّن أنَّ الإثباتَ في الكتاب ليس كذلك، فإنَّ الأكبر مكتوبٌ فيه كما الأصغرُ[1].

بلاغةُ الاكتفاءِ في حذف متَعَلَّقِ ﴿أَكۡبَرُ﴾:

الإيجـــازُ والاختصارُ من أساليب القرآن الكريم

اكتفى البيانُ القرآنيُّ في قول الله تعالى ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ بدلالة ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ عن تَكرارِ مثلِه بعد لفظ ﴿أَكۡبَرُ﴾؛ فلم يقل: (ولا أكبر منه)، أو (ولا أكبر من ذلك)، لكون السّياق قد دلّ عليه، وفي ذلك إيجازٌ واختصارٌ، لأنَّه إذا دلَّ على المحذوف دليلٌ، ولم يتأثّر المعنى بحذفه: كان الإيجازُ أبلغَ؛ والاكتفاءُ فنٌّ من فنون بلاغة القرآن الكريم، ويُسمّيه بعضُهم الاستغناءَ؛ وهو الحذف لوجود الدَّليل اللَّفظيِّ على المحذوف المقدَّر.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء:

تأكيدُ علمِ الله بالغيب وقصْرِه عليه دونما سواه

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن سَعَةِ علم الله تعالى بطريق النَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾؛ وهذا من طُرُقِ القصر، فقد قُصِر نفيُ العزوب المستلزَمُ منه سَعَةُ علمِه وإحاطتِه في كتاب مبين على الله دون غيره، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوف، وعبَّر عن ذلك بطريق القصر لتأكيد علمِ الله بالغيب.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 192.

وفيه إشارةٌ إلى حصر الموجودات كلِّها صغيرِها وكبيرِها في كتاب مبين، فُصِّل فيه كلُّ شيءٍ تفصيلًا واضحًا، وفيه تقويةُ المعنى وتأكيدُ الحكم[1].

سِرُّ التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

عُبِّر بالظَّرفيَّة في قول الله تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ لِما فيها من معاني التَّمكُّن والحفظ والقدرة في الإحاطة بالعلم بكلّ شيء.

دلالةُ الاحتراسِ في التَّعبير بالكتاب:

جاء الاحتراسُ بقول الله تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بعد بيان عظيم إحاطته ﷻ وسَعةِ علمه، ليُراعَى إدراكُ الإنسانِ العاجزِ عن تصوُّر سَعة هذا العلم، وعجزِ نفسه عن إحاطة شيءٍ من هذا العلم دون حفظِه في كتابٍ للعودة إليه عند نسيانه؛ أمّا الله سبحانه فهو غنيٌّ عن تدوين علمِه[2]، وفي هذا الاحتراس أيضًا تأكيدٌ لحفظ هذا المعلوم، وعدمِ وقوع الخلل فيه وإن طال عليه الزّمنُ؛ مع الإشارة بتعليم الإنسان ما ينبغي عليه للحفاظ على العلم، من تقييدِه وحفظِه بالكتاب.

تقييدُ العلمِ بالكتاب منهج قرآنيٌّ

سِرُّ تنكير ﴿كِتَٰبٍ﴾:

نَكَّر البيانُ الكريمُ لفظَ الكتاب في قول الله تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ لتعظيم مكانته، وشرفِه، وسَعتِه المستلزمِ عِظَمَ علمِ الله[3].

نكتةُ وصفِ الكتاب بـ﴿مُّبِينٍ﴾:

لمّا كان الإنسانُ قد يكتب الشّيءَ ثُمَّ يغيبُ عنه وينسى مكانَه فيعجزُ في استخراجه: أخبر الله تعالى أنَّ كتابه على خلاف ذلك، بل هو حيث لا يكشفُ من يريد اطِّلاعه عليه شيئًا إلّا وجده في

وضوحُ ما في الكتاب وظهورُه، مع حفظه من التّبديل والنّسيان

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 43.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 446.
(3) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 43.

الحال، فقال سبحانه ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1]؛ فوصفُ الكتابِ بأنَّه مبينٌ، لوضوح أمره وظهوره، فاللّٰه لا يخفى عليه شيءٌ.

توجيهُ المتشابهِ مع سورة يونس:

اللهُ شهيدٌ على أعمال عباده في الأرض، حفيظٌ لها في السماء

تشابهت هذه الآية ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مع قول اللّٰه تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]؛ فالملاحظُ تقديمُ السَّماوات على الأرض في موضعِ سورة سبأ، وتقديمُ الأرض على السَّماء في سورة يونس، ووجْهُ ذلك أنَّه قُدِّم ذِكْرُ السَّموات على الأرض في سورة سبأ - كما في مُفتتَحِ السّورةِ، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ - لأنَّ مُلكَها أعظمُ شأنًا وأكبرُ سلطانًا، وأمّا الآية التي في سورة يونس فإنّها جاءت عقيبَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61]، فكان القصدُ إلى ذكر علمِه بما يتصرّف فيه العبادُ من خير أو شرّ، وذلك يكون في الأرض، فأتمّه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 61]؛ فاستوعبَ جميعَ ما في الأرض، ثُمَّ أتبعه بذكر السّماء؛ لأنّ الابتداء وقع بما يتعلّق بالأرض، وما يعمل العبادُ فيها[2]، فالسّياقُ سياقُ تحذيرٍ وتهديدٍ للبشرِ، وإعلامِهم أنّه سُبحانَه عالمٌ بأعمالِهم دقيقِها وجليلِها، وأنَّه لا يَغيبُ عنه منها شَيءٌ؛ فاقتضَى ذلك ذكرَ مَحلِّهم - وهو الأرضُ - قبْلَ ذكرِ السَّماءِ، التي فيها حفظُ الأعمال وتسطيرُها[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 446.

(2) الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل، ص: 1074 - 1076، والكرماني، أسرار التَّكرار، ص: 207، 208، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/ 383.

(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 74.

ومن أسباب تقديم ذِكْرِ السَّمَواتِ على الأرضِ في سورة سبأ، والسّياقِ لإقرار السّاعةِ وإثبات البعث: أنَّ السّاعةَ إنَّما تأتي مِن قِبَلِها، وهي غَيْبٌ فيها، ومِن جهتِها تَبتدِئُ وتَنشأُ؛ ولهذا قَدَّمَ صَعْقَ أهلِ السّماوات على أهلِ الأرضِ عندَها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزّمر: 68].

ما تخفى على الله أعمالُ عباده، ولن يغيب عنه علمُ الساعة

وممّا يُذكر في اختلاف التّعبيرِ بين سورة سبأ وسورة يونس: أنّ نفي الخفاء جاء بـ﴿لَا﴾ في سبأ - ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ - لأنَّ الكلامَ على السّاعة، والسّاعةُ استقبالٌ، فجاء بـ﴿لَا﴾ الدّالَّةِ على الاستقبال في النَّفي؛ وأمّا موضع سورة يونس ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ فجاء النّفيُ بـ(ما)؛ لأنَّ الكلامَ على الحال، و(ما) مُختصَّةٌ بنفي الحال؛ فجيء بكلِّ حرفٍ في سياقه وموضعه الذي يليق به.

آيةُ يونسَ في استغراق علمِ الله الكونَ، وآيةُ سبأ في الاحتجاج للسّاعة بهذا العلم

ومنَ المتشابه بين الآيتين زيادة ﴿مِن﴾ [يونس: 61] في سورة يونس، وعدمُ ذكرِها في آية سبأ، في قول الله تعالى ﴿مِن مِّثْقَالِ﴾ [يونس: 61]؛ وسياق كُلِّ كلمة منهما يقتضي ذلك، فالكلامُ في آية يونس على إحاطة علْمِ الله بعلم الغيب، وأنَّه يعلم كلَّ شيء؛ فأوّلُ الآية قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61]، وأمّا في آية سبأ فالكلامُ على السّاعة ابتداءً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ فجاء الحديثُ عن علم الغيب تبَعًا للسّاعة، فلمّا كان الكلامُ في آية يونس ابتداءً على علم الغيب، ومقدارِ علم الله، وإحاطتِه بكلِّ شيء، بحيث لا يخرج عنه شيءٌ: ناسبَ ذلك زيادةُ ﴿مِن﴾ [يونس: 61] الاستغراقيّةِ المؤكِّدةِ، التي تستغرق كلَّ مثقال ذرّة في الكون[1].

(1) السّامرائي، التعبير القرآني، ص: 260.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العُزوب والبُعْدُ والخفاء:

يُطلَقُ البُعدُ على الهلاك والموت والخيانة؛ أمّا العزوبُ فهو بُعدُ غيابٍ وذهاب

يفترقُ العزوبُ عنِ البعد والخفاء، فلكلٍّ منهما ما يميّزُه في اشتقاقه ومعناه، فمادّة عزب تدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ[1]، والعازبُ: المتباعِدُ في طلب الكلأ عن أهله[2]؛ واستعمال العزبِ في الغياب لازمٌ للبعد، فالعُزوبُ: الغَيْبَةُ والذّهابُ، أمّا البُعد فهو خلافُ القُربِ، يقال بعُدَ الرَّجُلُ، أي: تباعد، وهو بعيد؛ وبَعُدَ: هَلَكَ أو اغْتَرَب، والبُعْدُ والبَعدُ: الهَلاك؛ والأباعدُ: خلافُ الأقارب، والأَبْعَدُ: الخائنُ، والبعد والقُرب ليس لهما حدٌّ محدود، وإنّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره؛ يُقال ذلك في المحسوس - وهو الأكثر - وفي المعقول؛ والبُعد أكثرُ ما يُقال في الهلاك.

والملاحظُ من هذه المعاني اللّغويّةِ للفظين: أنَّ بينهما تقاربًا دلاليًّا، إذ يشتركان في معنى البُعدِ الذي هو ضدُّ القُرب؛ ويتميّز البُعدُ بأنَّه يُطلق على الهلاك والموت والخائن، بينما يتميّز العَزْبُ بأنَّه بُعدٌ مُلازم لمعنى الغياب أوِ الذَّهاب أوِ الانفراد.

العزوبُ أدقُّ من الخفاء، فلا يُقال (عَزَب) إلّا للمُبتعد الغائب الذي لا يُدرَك بالبصر

أمّا الخفاء فهو استتارُ الشّيءِ استتارًا غيرَ تامٍّ، بحيث يظهرُ من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا؛ والمُختفي: النَّبّاش الّذي يستخرجُ أكفان الموتى، لأنّها مُستخفيةٌ تحتَ التّراب، ولأنّه يفعل ذلك خِفيَةً؛ والإخفاء ضدُّ الإبداء؛ والخَفا بالقصر: الشّيءُ الخافي؛ وخَفي الشّيءُ واختفى واستخفى وتخفَّى: استتر؛ وأخفيت الشّيء: سترتُه[3].

فالعزوبُ أدقُّ من كلمة الخفاء، فلا يُقال عزبَ إلّا للمُبتعِد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عزب).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خفي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفو، خفي).

الغائب الذي لا يُدرَك بالبصر، ولا يُعرَف مكانُه بالحِسِّ، إمّا لابتعاده أو لدقَّته وصِغَره؛ أمّا الخافي فهو المُستترُ، والخافيةُ نقيض العلانيَّة، فلا نقول عن شيء بأنَّه مختفٍ إلّا للموجود المستترِ الذي لا يمكن الوصولُ إليه إلّا بإظهاره.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»